الإهداء

أهدي تجربتي الأولى إلى معلمي وأستاذي السيد السالك و أستاذتي فاطمة العباسي و إلى روح جدتي التي بقيت ذكرياتها متسلسلة في ذاكرتي وروحها متعلقة بجسدي.

المقدمة

أخيرا بعد عمل مرهق قضيت فيه الليالي الطوال واستطعت أكتب فيه هذه المجموعة القصصية الشائقة تروي أحداثها واقعية و أخرى من نسج الخيال .

يوميات فلسطيني

ما أغرب هذا العالم وما أشد قسوته ففيه يقتل المسلم أخاه المسلم فأين حب السلام فكأن البشرية أصبحت تهوي سفك الدماء فالأيام شاهدة على معاناة الشعب الفلسطيني فالله ابتلاهم بعصابة بني صهيون فلنرى كيف تمر الأيام في بلدة تمزقها الحروب والفتن.

يوم الاثنين الأسود:

لم أصدق ما حدث فهي أشبه بمجزرة جثث هامدة ودماء سائلة كل ما حصل غير الاحتلال يقوم بمثل هذه الأشياء فتبا لهم لعنهم الله ففي هذا اليوم فقدت كل شيء قتلت عائلتي دمر منزلي فلم يعد لي مأوى فتبا للاحتلال الصهيوني فالقصف طال المدارس و المستشفيات و دور العبادة فنساء ورجال قتلوا وصغار شردتهم يد الهمجية فلا تسمع إلا أصوات الأنين تنبعث من تحت الدمار ففي هذا اليوم تشابكت جراح جسدي مع جراح قلبي و اختلطت دموع عيني بقطرات الدم النازفة من جبيني فخاطبت نفسي الجريحة " ترى هل سيكون لهذا اليوم من غد؟"

يوم الثلاثاء:

هدأ القصف فخرج الصغار والكبار كأنهم جثث بعثت فيها الحياة من جديد بل كأنهم جرذان أخرجها سيل جارف من جحورها من تحت الركام.نظروا إلى السماء لعلها تنزل شيئا من وحشتهم أو ترسل بصيص النور يهدا من خوفهم ويبعث فيهم قليلا من السكينة لكن من أين يأتي السلام و العروبة قبرت منذ سنيين وأبناء عمومتهم قلعت أظافرهم فانتشروا بين أكداس الحجارة والقمامة باحثين على ما يسد رمقهم ويكفي جوعهم فكل شيء مباح للأكل فجلست في ركن أتذكر الأيام الخالية التي

عشتها في هذا المكان و فجأة مزق هذا الصمت الرهيب صوتا يردد :يا صاحبي لا تبالي فجرحنا واحد وقدرنا واحد وحياتنا واحد سنعيشها رغم الداء و الأعداء فيا رب أطح بأعدائنا وذل قهارنا فنحن لا نناجي سواك فأنت رب العزة و الجلال.

يوم الأربعاء:

قضيت يومي كله هناك ثم تحاملت على نفسي وعلى جراحي وعدت إلى بيت جدتي فإذا هو خال لا يسكنه سوى العناكب التي اتخذت من أركانه بيوتا والفئران مختبئة في جحورها تحت أكداس الحجارة مرتعشة خائفة من هول القصف فتوجهت رأسا إلى غرفة والدي و **في ركن من أركانها وتحت نصف الحائط المتبقي منها عثرت على الصندوق الخشبي فقد كان هذا الشيء الوحيد الذي بقي لي من إرث عائلتي فقد جمعت فيه كل الأحداث الماضية حلوها ومرها لذلك سميته صندوق الذكريات.**

يوم الخميس

أسندت ظهري إلى الحائط وشعرت بالوحدة والضيق وأخذ مني الجوع مأخذه فأنا لم أذق طعم النوم منذ ثلاثة أيام ولم أتناول شيئا.ما أصعب أن يتمني شاب فلسطيني أن يكون حرا في هذا الزمن الغريب.

فأحسست بقلة النوم ولم أجد بدا من فتح الصندوق الذكريات لعله يسعدني ويبعد عني الضجر و القلق ورحت أتصفح الصور والمكتوبات و الشهائد فهذه أول صورة التقطتها أمي لي وأنا لم أتجاوز الخمس سنوات وتلك الصورة صحبة أمي على شاطئ البحر فأخذتني الذكريات إلى ذلك الزمن الجميل تذكرت اضطراب أمي وخوفها حين وخزتني شوكة في قدمي فلم يرتح بالها حتى أكد لها الطبيب أني في صحة جيدة و هذه شهادة الإعدادية أول شهادة علمية تحصلت عليها وقتها ذهبنا إلى فندق جميل قضينا فيه أوقات ممتعة كل هذا يختفي في رمشة عين أما الآن فأنا أخط شقائي وعذاب شعبي في أسطر قصيرة فأرجعت الحافظة إلى الصندوق فأقفلته وشرعت في نوم عميق و أنا أحلم بصباح مشرق.

يوم الجمعة

نهضت من تحت الجدار على أصوات بعض المارة وارتفاع حناجر بعض الشيوخ بالتكبير والكل يهرولون نحو المقهى فتساءلت عن السبب فأقبل لي شخص قائل لقد فتحت زهرة من حياة فانية وأشعت في الجو الحزين مسرة لعلها تمسح مآقي مقلتي هذا الشعب الباكي لقد ولدت اليوم ثورة من رحم أم عربية لعلها تزيل كل جدران الصمت المقيت وتمسح دموع الشعوب المقهورة إنها الابنة تونس ثورة الياسمين فشعرت بفرحة عارمة تملا كياني فهل سينجح الأمل بعد اليأس فهل سيشع النور بعد الظلام وهل ستفيق الشعوب من غفوتها.

يوم السبت

اليوم قررت الرحيل وعدم العودة لقد تعبت يكفي ما رأيت من جثث في الشوارع كفاني ما سمعت من بكاء الصغار و صياح الكبار فأزيز الطائرات أصم أذني وقصف المدافع دمر أحلام ولكن في لحظة تذكرة أنها أرض أجدادي ففيها تربية وعلى رمالها لعبت وفى شواطئها سبحت ومن خيرتها أكلت وفى مدارسها تعلمت لن أتركك يا بلادي لقمة سائغة للأعداء مادام في جسدي دماء فلن أكون من الخائنين و لفضلك لن أكون من الجاحدين يا فلسطين لا تعتقد بأن شعبك قد أنتها فلكي رجال ونساء مازلت قلوبهم أحياء فصبرا يا بلدي صبرا

يوم الأحد:

توجهت إلى المسجد الأقصى وفى طريقي اعترضني جندي إسرائيليا فصحت في وجهه يسقط الاحتلال.... الموت للأعداء فضربني ببندقيته وجعلني طريح الأرض ثم رماني بقطعتي حلوى ساخرا قائل " خذ هذه القطعة ولو أن أمثالك لا يستحقونها"

فرميت القطعة في وجهه قائلا " تحيا فلسطين و يسقط إسرائيل "

فضحك كالمجنون وصاح بأعلى صوته" إرهابي إرهابي "

وصوب ببندقيته في صدري فأحسست برصاصة تخترق جسدي لكنه لن يقتل أملي سيأتي يوما يرفرف فيه علم بلدي عاليا ويذكر فيه اسمي عبر سطور التاريخ.

عصفور البلدة

تعيش في بلدنا فتاة فاتنة الجمال يفتن بها كل من يرها لأول مرة لذالك يتهافت الشباب ويتسابقون في خطبتها حتى سموها باسم العصفورة فقد كانت رقيقة المشاعر طيبة القلب لا تطرق باب إلا وفرح بها ساكنه ولا تدخل منزلا إلا وأشاعت فيه البهجة والسرور ولما بلغت العشرين سنة قرر ولدها تزويجها قريبها محمد وكانت العصفورة غير راضية بهذا الزواج فكيف ترضى وهي التي عاشت منذ ولادتها قصة حب عذري مع طارق ذلك العاشق الذي أول من فتح قلبها على الهيام والغرام وعلى يديه تعلمت خطواتها الأولى في العشق وهو أول من علمها اللوعة والفراق والهجر وحنين الشوق ولذة الوصال بعد الفراق فمنذ هاجر إلى إلى فرنسا للعمل انقطعت أخباره لكن العصفورة ظلت تقصد شجرة الصفصاف مكان لقاءاتهم فهذه الشجرة تعتبر مكان مقدسا عند عصفورة أشعلت أول شمعت حبها وبين أغصانها بنت عشها مع حبب عمرها وتحت أوراقها أخفته على أعين الحاسدين والواشين لقد أسدة ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت تنوح فطار عشقها الطاهر فهي تعشقه ولا تريد سواه ولكن حبها لوالدها يقيدها فهوى الذي رباها وكساها وعلمها و لا تريد كسر خاطره فهو يتمنى أن يرها عروسا

ويلاعب أحفادها قبل أن يغمض عيناه ولكن ماذا تفعل و الاثنين يحتلان الجزء الأكبر من قلبها . فرفعت يدها إلى الله متضرعة " يا رب يا من وهب لي القلب وأسكن فيه الحب بأسمائك الحسني أنر طريقي " أه كم أتمنى لو أراك يا طارق وكم أتمني أن أعانقك أقبلك أشم ريحك فأنا سأموت سيقتلني حبك وفي الصباح الموالي ذهب الشيخ محمود إلى المقهى ليحتسي قهوته كعادته مع رفاقه فأجلسه صديقه الشيخ علي بجانبيه وطلب من النادل قهوة له.

ثم قال له مجاملا " صديقي الشيخ محمود لقد مرت على صداقتنا عشرون سنة ولم نفارق بعضنا يوما "

-فقاطعه قائلا " ما سبب هذا التملق يا علي ؟"

" -أنا أتملق "

" -أنت اليوم على غير عادتك"

" -هل الشخص الذي يحب صديقه تسميه متملق"

" -ماذا تريد يا علي ؟ تكلم بكل صراحة . قلها ولا تخف"

" -الحقيقة يا صديقي هنالك شيء يقلني ويحيروني"

" -ماهو هذا الشيء المحير"

" -زواج ابنتك"

" -ما به هذا الزواج ؟"

" -الحقيقة أن عصفورة فتاة جميلة متخلقة لا تستحق منك أن ترمي بها إلي ذلك الصعلوك محمد"

" -لا يستحقها ولماذا ؟"

" -نعم ألا تعرف انه سكير ويعيش علي تقاعد والده"

"-لماذا تلمح أنني بخيل لن أساعده ؟"

" -لا حاشاك أن تكون بخيل أقصد لماذا تختار لها زوجا صالحا كابني طارق فهو كما تعلم في فرنسا ومثقف و يستطيع أن يجعل عصفورة كأميرة وتعيش عيشة الأمراء"

" -وهل وجدناه طارق كي نزوجه ابنتنا"

" -فقد وعدني أنه سيعود العام المقبل

" -ماذا عام بأكمله ؟ "

" -نعم عام فقط"

"-وهل سأضمن حياتي عاما أخر وربما سيعود متزوجا وهل عصفورة ستوافق ؟"

" -هي لا ترفض لك طلبا"

" -أنا لن أوافق فلن أدع ابنتي تنتظر عاما بأكمله"

ويخرج الشيخ محمود من المقهى وعلامات الغضب بادية علي وجهه. أما الشيخ علي فيبقي علي مكانه جالسا واجما حائرا بماذا سيخبر ابنه عندما يأتي لقد منعه حياءه أن يخبر صديقه الشيخ محمود بعلاقة عصفورة بطارق ومضت الأيام وأقيم زواج عصفورة ومحمد وكان حفل بهيجا حضره الكبار والصغار نساء يزغردن ويغنين والصغار يلعبون والرجال يتجاذبون أطراف الحديث إنها فرحة العمر فالإنسان مهما عاش فسيموت لا محالة فيجب أن يتمتع بأيام السعادة القليلة في

حياته ولكن عصفورة تحطم قلبها وتوقف عن النبض معلنا نهاية حياتها لقد قبرت ودفنت في احتفال بهيج لقد شيعت إلى المدافن في هودج مصحوبا بالطبل والمزمار وتوالت الأيام ومرت الشهور وانقضى العام وعاد طارق من فرنسا وبنى قصرا وأشترى سيارة من أحدث طرازا ومظاهر النعمة والطرف ظاهرة علي محياه فقد أصبح محل أعجاب كل فتيات القرية وبعد أيام من عودته ذهب طارق إلي المقهى وهناك التقى حلاق القرية مسعود فعانقه قائلا" يا أهلا وسهلا بحلاق قريتنا العامرة"

" -أهلا بابننا البرجوازي الجديد ... هذي مفاجأة رائعة "

" -أيها النادل أحضر قهوة لحلاقنا"

" -حاضر يا سي طارق"

" -إن شاء الله نشرب شربات فرحتك"

" -لقد قررت أن أصطحب عائلتي وأطلب يد عصفورة لزواج"

" -لكن عصفورة متزوجة وقد أنجبت صبيا وسمته طارق"

" -منذ متي ؟"

" -تقريبا حوالي عام"

" -إلي إلقاء أيها الحلاق المحترم"

" -وقهوتك "

" -لا حاجة لي بها"

" -هذا اليوم سعدي سأشرب قهوتين في يوم واحد"

وخرج طارق من المقهى غاضبا يجر ساقيه جرا شارد الذهن فاقدا لوعيه وكأن كل هموم الدنيا ألقيت على كتفيه فلم يشعر بنفسه إلا وهو أمام دار عصفورة فأمتزج

ظلام الليل الحالك بسواد قلبيه فلم يعد يفكر إلا في الانتقام من محمد زوج عصفورة مرت ساعات وطارق على حاله متكآ بين الأشجار حتى فتح باب المنزل وخرج منه شخص يرتدي معطفا أسود فأطلق عليه ثلاثة طلقات واحدة في الكتف والثانية في الصدر والثالثة في القلب وعاد إلى بيته وكأن شيئا لم يحدث وفي الغد بلغه أن الشخص الذي أطلق عليه النار هي حبيبته عصفورة فهي كل ليلة تخرج إلى شجرة الصفصاف فتشعل شمعة وتجلس ساعات تحتها ثم تعود .

فندم أشد الندم على فعلته فلم يغد لحياته طعم ولا لبقائه في هذه الدنيا فائدة فمن كان من أجلها يحي ولها يعيش فقد ماتت وحياته بلا عصفورة موت بطئ ثم أطلق على نفسه النار مرددا " يا عصفورة فرقتنا الحياة ستجمعنا الموت فيا ليت يضمنا قبر واحد .

أم الخبائث

دقت الساعة التاسعة ونصف فهذا الزمن مقدس لدى عائلتنا فتجمعنا حول التلفاز كعادتنا لمشاهدة مسلسلنا المفضل "شوفلي حل "فساد السكون قاعة الجلوس و كأن الطير فوق رؤوسنا وفجأة طريق الباب طرق عنيفا فأسرعت أختي لفتحيه وبعد ثوان سمعنا صوت القبلات والترحيب الحار إنه خالي عمر ولكن أي ريح ساقته إلينا في هذا الوقت الغير مناسب تري ما سبب هذه الزيارة المفاجأة وبعد التحية والسلام جلس بجانبي ونهض أبي من مكانه وقبل الجلوس بالقرب من خالي عرج على التلفاز وأطفأه واسترسل خالي يروي قصة تحصله على وظيفة بالمدينة ولكن يحب أن يبقي أسبوعا في منزلنا إلى أن يتمكن من إيجار شقة وبعد سكوت خالي نهضت وهممت بفتح التلفاز لمشاهدة ما بقي من مسلسلنا المفضل.لكن خالي نخص فرحتنا وأمرني بترك التلفاز مغلق مدعيا أنه سيروي لنا

قصة شيقة وطلب منا أن نتجمع حوله ونصغي لحكايته بانتباه وبعد أن ترشف كوب من الماء صمت هنيهة ثم قال " هذه يا أولادي قصة من أرض العجائب والغرائب "فقاطعته متحمسا " أين يوجد هذا المكان إني لم أسمع ببيه من قبل " فأجابني أنها مقهى الحاج محمود " فأنفجر الجميع ضاحكين بسبب بلاهة خالنا فقد قام بمدح شيئا تافها وعظم من شأنه حقيرا فأمرنا بالسكوت وواصل سرد حكايته قائلا " يا أعزائي كان شهير رجلا وديعا أسود الشعر بني العينين شامخ الأنف صغير الشفتين قمحي البشرة صوته كزقزقة العصافير فأنطلق يقول حكمة خفيف الروح طيب القلب عرف برفعة أخلاقه وكان كل مساء يقصد المقهى ليحتسي كوبا من القهوة وصادف في ذالك اليوم أن وجد أصدقاء دراسته جالسين في المقهى فسلم عليهم وجلس بقربهم وشرعوا يتذكرون الأيام الخالية أيام الزمن الجميل أيام اللهو والعبث والشقاوة فذكروه بمغامراته كيف كان يقطع الماء على الحنفيات دون أن يتفطن له أحد وكيف يغلق أبواب المرحاض من الداخل دون أن يكتشف المدير أمره. وعندما خرج ذات مرة هو وصديقه من المعهد للقاء عشيقته حقا هذه الفترة كانت من أجمل الفترات في حياة الإنسان وستبقي خالد في ذاكرته إلى يوم القيامة. فأخذتهم الذكريات ولم يستعير و بالوقت الذي مر وكأنه ثواني وعندما هم بمغادرة المجلس اقترح أحد الأصدقاء أن يحتفلوا بهذه المناسبة بالذهاب إلى الخمارة لاحتساء كأسا احتفالا بهذه المناسبة السعيدة لكنه رفض ذلك قائلا" بأن الخمر يفسد عقل الإنسان ويؤثر في علاقته بعائلته " فاستمروا في إلحاحهم ومحاولة إقناعه بعد وجاهة رأيه وإن كان حقا يحبهم ويعزهم فل يشاركهم هذه الفرحة وفي الأخير وبعد أخذ ورد قبل رفقتهم إلي الخمارة مشترطا بأنه لن يشرب سو كاس واحدا ولن يطيل المكوث معهم فقبلو ذلك بفرح ثم توجهوا جميعا إلى الحانة كأنهم قطيع من السباع يترصد فريسة فشرب الكأس الأول وهم بالمغادرة لكن رفاقه أجلسوه مقسمين أن الكأس الثاني سيكون أخر كاس يشربونه وهكذا دوليك فاستمروا في الشرب والغناء والرقص والجنون إلي ساعة متأخر من الليل عندها تفطنون أن عليهم الرجوع إلي منازلهم فأوصله إلي منزله كأنه شبه ميت أو مجنون ناقص عقله تارة يتخبط و تارة يغني وأخرى يضرب الباب بقدمه ففتحت زوجته خائفة مذعورة فلم رأته على تلك الحال صاحت بأعلى صوتها:

" -ماذا أصابك ؟ كيف تعود إلي البيت وأنت في هذه الحالة ؟ أجننت يا رجل ؟"

فدفعها دفعة قوية وولج إلى البيت

-قائلا" إن الأمر لا يهمك ومن الآن فصاعدا تعودي على هذا الحال كل ليلة"

" -ماذا تحولت إلى منحرف أخرج من بيتي وعد إلي المكان الذي أتيت منه"

" -ماذا دهاك أصمت قطع الله لسانك " و أنهال عليها ضربا وشتما وكلام

" -أتضربني بعد كل السنيين التي عشتها في خدمتك أيها الحقير"

" -أخرسي وإلا قتلتك"

وتعالت الأصوات وكثر الهرج والمرج والصياح والبكاء و العويل وفتحت نوافذ بيوت الجيران طالبين منهم الهدوء وإلا سيطلبون لهم الشرطة وفي لمح البصر يدخل إلي المطبخ ويخرج منه حاملا سكينا و يندفع نحو زوجته لكن ابنته تمسك به فيدفعها دفعة قوية فيرتطم رأسها بالحائط فتسقط على الأرض تتخبط في دمائها ويطعن أم صغاره و عشيرة عمره طعنتين كانتا سببا لإنهاء حياتها ومن هول الصدمة جثي على على ركبتيه وقد أفاق من حالة السكر التي كان عليها متأملا المشهد الذي أمامه ثم ردد بصوت مرتفعا" صدق من قال الخمر أم الخبائث لقد جنيت على نفسي كما جنت على نفسها بمراكش " وطعن نفسه فسقط جثة هامدة .

أمي

أمي ليست ككل الأمهات أمي نبع من الحنان لي معها ذكريات لا تمحي بمر الزمان أمي نهر من العطاء لا تجف مياهه ليتك يا أمي مع الآن لكي أقبل جبينك وأجلس فوق ركبتيك وأروي معك حكايات الماضي هل تذكرين يا أمي يوم كنت في البيت

أراجع دروسي وإذا بالباب يطرق طرقا عنيفا فتحت الباب فإذا بأبي يدخل والشرر يتطاير من عينه مزمجرا متوعدا رافعا صوته بالنداء " أين أبنك ؟ أين ذلك الطفل العاق ؟يا رب لما ابتليتني بابن متوحش لا يجلب لي سوى العار و المهانة" لأن جارنا محمود أخبره في المقهى أني ضربت ولده وقذفت نوافذ بيته بالحجارة لم أجد من يدافع عني سواك فأنت كنت المكان الذي أحتمي به وبفضلك أكتف أبي بتأنيبي فقط وفي الغد ذهبت إلي المدرسة فاعترضي صديقي عمر مرحبا - وقال "يا صديقي العزيز كيف حالك"

فأجبته " - إني على أفضل حال وعلى أحسن ما أكون "

" - ما رأيك يا صديقي لو نتغيب على المدرسة ونذهب للعب مع أبناء جارتنا بالكرة "

" - هل جننت يا عمر أتريد أن نتغيب عن الدراسة ؟

" - نعم "

" - ولكننا لن نستوعب الدرس الذي يفوتنا "

" - لا تقلق سنطلب من أخي أن يساعدنا في فترة الامتحان "

" - أنتغيب عن الدروس لنلعب ما هذه الفكرة الحمقاء"

" - لماذا"

" - لأن الدراسة تفتح أبواب المستقبل وتثقفك"

" - هذا غير صحيح أنت مازلت لم تتحرر من سلطة والديك أنت تخاف من عقابهم"

" - أنا لست خائف من أبي ولا أخاف من عقابه"

" - لا بل أنت خائف في الحقيقة مازلت لم تكتمل رجولتك بعد أما انا فقد أصبحت رجلا وإن كنت لست خائفا كما تدعي فهيا نذهب إلي بطحاء الحي فهنالك اللعب والترفيه عن النفس "

" - حسنا سوف أذهب معك "

أخذنا نتسابق أنا وصديقي عمر حتى وصلنا فاستقبلنا أصدقائنا بالتهليل والترحيب اصطففنا كالجنود وقسمنا أنفسنا إلى فريقين وشرعنا في اللعب . وعندما اخذ منا التعب مأخذه جلسنا على الصخرة وأشعل عمر سيجارة وفجأة أحسست بيد صلبة تمسك بي وتطرحوني أرضا إنه أبي بقامته الطويلة وشعره الأسود وعيناه الكبيرتان ويداه الغليظتان و انهال عليا ضربا وسط البطحاء أمام الجميع ولم يجرأ أحد على تخليصي من براثنه ولا أعرف كيف تمكنت من الهروب وأخذت أسابق الريح إلى الوصل إلي حضن أمي فطرقت الباب بسرعة وما إن فتحت أمي الباب حتى ارتميت في حضنها فضمتني إلي صدرها متسائلة عما حدث فأخبرته بالحقيقة فاكتفت بالصمت وأمرتني بالدخول إلي غرفتي وبعد لحظات دخل أبي المنزل والشرر يتطاير من عينه وتقدم من غرفتي يريد دخولها فمنعته أمي قائلة "محمود هداك الله كف لقد قتلت الطفل "

" -تنحي من أمامي أنه طفل قليل التربية ويجب أن يعاقب على فعلتيه "

" -يكفي يا عزيزي لقد عاقبته ما فيه الكفاية"

" -أه كم أتمنى قتل هذا الطفل الشقي وادفنه تحت التراب لقد فضحني في الحي كيف سأقابل أصدقائي وكل صار يعرف أن أبني يدخن ويتسكع كأطفال الشوارع"

" -أهدأ يا محمود ليست الطريقة الناجعة فلابد أن نتحاور معه ولا تنسي أنه في سن المراهقة "

وقد زاد الأمر تعقيدا عندما أجبتها قائلا " والله يا أمي مظلوم »

فرد أبي قائلا " تكلمت يا كلب " ثم أخذ يدفع أمي يريد الدخول إلي الغرفة وأمي تصده كالجدار ولكنه دفعها دفعة قوية فسقطت على الأرض ولما شعر بالندم غادر البيت وأغلق الباب وراءه .فخرجت من غرفتي كالمجنون أساعدها على النهوض فنظرت إلي نظرة حنونة فانفطر قلبي إلي شطرين وقالت " كيف حالك يا ولدي هل أنت بخير. اسمع يا بني عندما أراك مبتسما أنسى كل أحزاني فأنت فرحتي وأنت كل سعادتي ومنذ اليوم لن أسمح لأي شخص أن يلحق بك الأذى وأنا مازلت على قيد الحياة لكن يا ولدي الرجولة لا تكمن في علبة سجائر أو كأس من الخمر فالرجولة حقا ما ستقدمه لوطنيك وأهلك وعشيرتك فالحياة صراع بين الخير و الشر وبين النجاح والفشل ومن لا يريد الصعود إلي قمم الجبال يعيش ابد الدهر بين الحفر فعليك يا ولدي أن تمشي بين الناس مرفوع الرأس لا مذلولا حقيرا عليك يا ولدي بالعلم فهو طوق النجاة .

أمي الثالثة

جلست وراء طاولتي كعادتي أقلب كتبي و أتصفح مذكراتي وفجأة وقعت بين يدي صورة قديمة من زمن الدراسة فأخذتها وبدون أن أعر كسحت الغبار غلى وجه معلمتي وذلك الوجه الحنون العطوف وعادت بي الذكريات إلي أيام خلت مازالت أحزنها و ماسيها منقوشة في ذاكرتي لم تمحي بعد رغم أني حققت كل ما أريده فأنا الآن محامي مشهور وأملك بيتا متواضع مستور الحال والحمد لله وأعيش مع زوجتي وأطفالي لكن رغم ذلك فهذا الحزن مازال مرسوم على وجهي وكأني أحمل هموم الدنيا كلها وبينما أنا في حالة شرود فتح الباب ودخل أبنائي وما إن شاهد الدموع تسيل من مقلتي حتى صاحوا

"ما بك أبي ماذا جري.... أمي....أمي تعالي سرعة إن أبي يتألم أسرعي يا أمي
"فدخلت زوجتي مسرعة مفزوعة وما إن رأت المشهد ارتمت على الكرسي وقالت

"يا عزيزي إلا متى ستبقي أسير ذكريات ألا ترى أن الوقت قد حان وليس من شيم رب العائلة أن يخفي عن أبنائه ماضيه أليس أطفالك الآن في عمر يسمح لهم بمعرفة تاريخهم حتى يستطعون بناء حاضرهم أليس من حقهم أن يفتخروا بمسيرة كفاحك ونضالك "

وبعد حوار ونقاش عسير رضخت إلي أمرها فقلت " اجلسوا ي أبنائي سأخبركم عن سبب سيلان دموعي فالأب بأولادي هو المكافح الصابر على مصائب الدهر فلأب يا أبنائي منه تستمد الغائلة قوتها وصمودها وعليه ترتكز كل أعمدة البيت وكم تمنيت أن يكون جدكم من هذا النوع من الإباء لكن تسير الرياح بما لا تشتهي السفن فقد كان أبي شخص جبار متغطرسا .لا يعمل يقضى يومه بين المقاهي في لعب القمار أما ليله فكان يقضيه بين الخمارات في السكر فلا يعرف شيئا سو

الضرب والشتم بأسوأ النعوت وأبشع الألفاظ أما أمي فلا تفارقها البسمة رغم ما تعانيه فهي صبورة تراها تقضي يومها في العمل في البيوت تغسل و تنظف وتكنس وتعود إلي البيت فتطبخ لنا ما تيسر عندها من الطعام ثم تنزوي في ركن من أركان الغرفة الوحيدة التي نملكها فهي بيت نومنا ومطبخنا وغرفة استقبالنا .تنتظر عودة أبي كي تمنعنا من بطشه فهي تتحمل كل الضرب و الإهانات من أجلنا رغم ما وتعانيه تنهض في الصباح باكرا فتقد لنا قليل من الخبز اليابس وصحنا به زيتا وتدعو لنا بالنجاح والتوفيق فكنت أذهب إلي المدرسة حزينا كئيبا محطم القلب وما يزيد عنائي هو نفور أصدقائي مني بسبب فقري وهندامي الرث فكنت أجلس في القاعة وحيدا أتفرس وجوه أقراني وهم يتغامزون ويتهامسون وينظرون إلي حذائي الممزق لكن المعلمة رانية أمرتنا بالوقوف ثم أخرجت من محفظتها أوراق الاختبارات و اقتربت مني ووضعت يدها فوق كتفي فنظرت إليها نظرة المنكسر لكنها تبسمت و انشرح وجهها و فاض البشر من محياها و خاطبتني قائلة

" أرفع رأسك يا ولدي فمن حق أمك أن تفتخر بك ومن حقي أن أتباهي بك أمام زملائي فأخبارك ممررته على جميع الزملاء فلكل أثنوا على تفوقك على الجميع لذالك قررنا أن نمنحك جائزة " وفتحت الخزانة وأخرجت كيسا وقدمته لي تحت تصفيق وتشجيع أصدقائي فشكرتها ومنذ ذلك اليوم أصبحت مرشدتي فمنها أستمد القوة والعطف والحنان وهل تعرفون يا أولادي عندما فتحت الكيس ماذا وجدة فيه ؟ لقد اشترت لي كسوة وحذاء جديد وفي الغد عدت إلي المدرسة وقد رميت وراء ظهري كل أحزاني و معاناتي ولم يعد أمامي سوي هدف واحد هو تحقيق أحلامي وأما معلمتي رانية فقد أصبحت أمي الثانية فقد كانت تعلمني الصبر والأمل والثقة بالنفس فقد كانت تعطف عليا و تحملني معها إلي بيتها وتقدم لي أشهي الطعام وألذ الحلويات وتشتري لي الأحذية واللباس فقد كانت تحنو عليا حنان الأم على أبنها ولا تطلب مني إلا الاجتهاد والتفوق وأصبح أسمي يتردد في كل المجالس داخل المدرسة وخارجها وعندما بلغت سن الثالثة عشر أصيبت أمي بمرض فلازمت الفراش وتغير حالنا من السيئ إلي الأسوأ ولم يعد أمامي إلا أن ألتحق

بالحضائر للعمل هناك وكان أبي يشر على عقلي فنظرت أمي إلي نظرة المشفق ورقرقت عينها بالدموع.

وبعد يومين قدمت معلمتي وطلبت مني العودة إلى المدرسة لأن إدارة المدرسة قررت أن تمنحني راتب شهريا قدره ثلاثمائة دينارا وبعد مدة اكتشفت أن هذا المبلغ تخصمه من رتبها وعندما سألتها أجابتني قائلة

"يا ولدي لقد خلقنا الله أحرار ولن أسمح بأن تكون عبدا يستغلك أصحاب المال فلا تتخلي عن هدفك مهما كانت الأسباب " ومنذ ذلك اليوم لم أفارقها أبدا .

رحلة الحب

دخلنا على جدتي غرفتها كعادتنا فخاطبتنا قائلة " هل اشتقتم لي بهذه السرعة والفرحة تكاد تطير من عينيها "فصحنا بصوت واحد " نعم يا جدتي العزيزة " والحقيقة أن كل لهفتنا و اشتياقنا لحكايتها وقصصيها الطريفة الممتعة فجلسنا إلي جانبها وطلبنا منها أن تروي لنا حكاية جديدة فسكتت قليلا ثم قالت " في يوم من الأيام كان هناك شاب حسن المنظر جميل الوجه صغير الأنف يتمتع بحسن الأخلاق بارا بولديه كريما يحب لنفسه ما يحب لغيره وكانت جارته فتات سوداء البشرة تنحدر من عائلة فقيرة لكنها تتميز بأخلاق عالية فهي في منتها اللطف والكرم محبوبة بين أفراد الحي البسمة لا تفارق شفتاها تدعي زهرة.

فجمعت بين زهرة وطارق قصة حب جنونية ككل العاشقين لكن العيب الوحيد الذي يفرق بينهما أنها سمراء البشرة وتنتمي إلى عائلة فقيرة قد بدأت علاقتهما تتأثر شيئا فشيئا.

وعندما قرر طارق الزواج جمع ولديه وقال لهم.

" - هل أنتم تحباني ؟ "

" - بطبع نحبك"

" - وهل تريدون لي السعادة"

" - طبعا ومن منا لا يريد لك السعادة ؟"

" - فإذن أنا قررت أن أتزوج وأريد أن أخذ مشورتكم"

صاحت الأم " حقا يا طارق تريد الزواج يا فرحتي " فقاطعها الأب قائلا "إنه يوم سعدنا وأخيرا سيكون لي أحفاد ألاعبهم أقسم يا بني ساقي ملك عرسا يكون حديث الكبار والصغار وتتفاخر بيه بين أقرانك.

"- لكنكما لك تتركاني أكمل حديثي هل تعريفان من ستكون الزوجة"

" - من يا ولدي"

" - إنها زهرة يا أمي "

عند إذن صاح الأب " زهرة السوداء ما بك هل جننت ألم تجد من بنات الحي الجميلات البيض سو زهرة ستجلب لك النحس أنا لن أوافق على هذا الزيجة وإذا كنت تريد الزواج بها فل تتزوجها بمفردك " وغادرة الغرفة متمتما أخرج من بيتي ليس لك مكان بيننا ودع البنت التي تحبها تكون عائلتك ومن الآن فصاعدا أنسي أن لك عائلة.

خرج الابن والدموع تنهمر من عينيه ماذا يفعل وما الحل ؟ أ لهذه الدرجة وصلت عقليتنا ما أقسي قلب الإنسان وما أشد طغيانه هل لهذا الحد وصل جهلنا و تخلفنا ما هذا العالم الغريب عالم يقهر فيه البشر من أجل لون بشرته فقد خلنا أن عهد العبيد قد ولى منذ قرون.

فتوجه إلي الساحة العمومية للقاء زهرة وما أن وصل ضمته إلي صدرها باكية فسألها سبب بكائها فأعلمته أن ولدها هو الأخر رفض هذه العلاقة

" - ما هذه الدنيا أ هذا هو قدرنا فهل أصبحنا لعبة بين يديه ؟ لن أسمح بذالك"

" -أنا معك يا حبيبي لكن ما لقدر "

" -نهرب يجب أن نتزوج ونضعهم أمام الأمر الواقع"

" -لا لن ألحق العار بعائلتي يجب أن نفكر في حل أخر وعائلتك ؟ "

" -زهرة يجب أن تختاري الآن و تقرري وإلا لن تري وجهي بعد بعد اليوم "

ثم غادر طارق المكان وتوجه نحو بيت صديقه أين قضى ليلته وفي الصباح الباكر عاد إلي الساحة فأنتظر زهرة لعلها تأتي لكنها لم تأتي.

عندها قرر أن يغادر المدينة فركب القطار وذهب إلي مدينة بعيدة تاركا وراءه ذكرياته وأعز أحبابه .

نداء الواجب

اليوم هو اليوم الموعود اليوم سيعود أخي إلي المنزل بعد غياب سنين طوال خلف ذهابه قهر وعذاب لأمي وحزن العائلة أما اليوم فخبر عودته قد منح المنزل حيوية ونشاط غير معهودين فقد خرج الأب من عزلته وعاد إلي سابق عهده فذهب إلي السوق لشراء الحاجيات وللهو مع العم علي النجار و أما أمي فقد طارت من الفرح وأخذت تبخر غرفة أخي بأفضل أنواع البخور وتزين غرفته بالأغطية الناعمة والحريرية وهي في غاية الفرح والسرور وأختي الصغرى أخذت تنظف المنزل وبعد ساعات خرجت لأعترض أخي من المحطة فذهبت أسابق الريح وأنا كسهم يشار لك هدفه وصلت إلي محطة القطار وما اشد فرحتي عندما رأيته ولكن لاحظت تغيرا في ملامحه فقد غير جو المدينة من ملامحه فقد هزل وزاد طوله وملئ وجهه حبا وأصبح يضع نظارة على عينه فهذه حال أصحاب المدينة يتركون حياة الريف الرائعة ويذهبون للمعانات في المدينة وهم لا يغرفون النعمة التي يتركونها في الريف هواء نقي أكلة صحية أشجار مثمرة و حيوانات أما

عيشة المدينة فهي عيشة النحس انتم أيها البشر تبيعون أرض الأجداد وتتركون أحبابكم وإخوانكم وتنسون الحياة التي كنتم تحيونها وتذهبون إلي المدينة وتذوقون العذاب بألوانه أ هذه الحياة التي تريدونها أيها البشر حقا إنكم لا سخفاء تنكرون النعمة أمامكم والتي زينكم بها الله وتذهبون لحياة العذاب حقا صدق من قال من دخل نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر و ...أنا غارق في تأملاتي...أخي يستفسر عني فأخبرته أني في حالة جيدة نضر لي وضحك ضحكت سخرية ثم قال

" - أنت حائر يا أخي من تغير حالتي من الجيد إلي السيئ هذا أمر طبيعي فمن طلب العلا سهر الليالي "

- فأجبته " أي علا تقصد يا أخي وأنا أشفق علي حلتك عندما رأيتك "
" - ما بها حالتي هل تنذر بسوء"

" - إنها أسوء حالتك تبشر بالمرض هل نترك حياة الريف الهادئة و الآمنة وتذهب إلي المدينة لتعاني"

" -هذا كله في سبيل التطور"

" -أي تطور يا أخي أنت تملك أرض والدك ما حجتك للكراء والعذاب وتملك حقله ويمكنك العمل ما حجتك إلى الدراسة والهزال حقا فالمدينة مصاريفها كثيرة وتضر صاحبها "

" -اسمع يا أخي أنا أحب الريف ولكن يجب التطور يجب أن نقف على مستقبل البلاد هل ترضي يا أخي هذه المعانات هل ترضى أن يسخر منا المجتمع الأوروبي وبسبب تأخرنا ونحن كنا أسيادها وكنا متقدمين عليها أترض أن تكون لقمة سائغة في يد المستعمر ويعاد احتلالنا يجب علينا المقاومة والنضال لنبلغ غايتنا ونعلم الأجيال القادمة معنا الحياة والوطن ونبني أسس التسامح والغفران فبلا تسامح أو تعاون لا تبنا البلاد وبذلك ستضيع كل أحلامنا و طموحاتنا"

" -هذا أمر رائع ما احلي الكلام عن البلاد لقد أشعلت هذه الكلمات فؤادي وجعلتني أري المستقبل المشمس لذلك سوف أدرس واعمل وأناضل كي أجعل علم بلادي يرفرف فوق القمم"

بعد دقائق من الحديث وصلنا للمنزل فكأنه في يوم عيد أخذ الجميع يقبل أخي ويحدثه عن أحواله وأقامت أمي مأدبة احتفالا بتخرج أخي وعودته إلي المنزل وبعد العشاء أحضر أخي من غرفته حقيبته وفتحها وقدم لكل منا هدية ففتحت الهدية وإذا بها سيارة تعمل بالتحكم عن بعد ففرحت بها وقررت أن ألعب بها وأتفاخر بها أمام أقراني ولكن علمت من أخي أنه بعد توزيع الهدايا سوف يقص لنا حكاية شيقة انتهى مهرجان توزيع الهدايا و أقترب موعد القصة فتحلقنا كبارا وصغارا حول أخي فأخذ وقتا وهو ساكتا حتى شعرنا بالضجر وبعدها هم يقول " أنا لن أحكي لكم حكاية كحكاية الأرنب والسلحفاة أو حكاية خرافية كحكاية ليلي والذئب بل سأروي لكم من واقع البلاد التونسية في زمن المستعمر الفرنسي و النضلات والمعارك التي حدثت في سبيل تحريرها وأهم روادها مثل فرحات حشاد وبرقيبة وعبد العزيز الثعالبي كلهم أناس دفعوا دمائهم ثمنا لتحرير الوطن ومن أبرزهم فرحات حشاد هذا الزعيم الوطني الشهم والمغوار فقد كان مناضلا بأتم معني الكلمة فهوي الأمان والحنان وحامي البلاد ولكن لم تدعه عصابة اليد الحمراء يبلغ رسالته بل قتلوه وهو في منتصف الطريق في يوم مظلم والطقس ممطر يقبل فرحات حشاد زوجته وأولاده ويذهب إلي مقر الإتحاد وفجأة تتوقف السيارة أشخاص مجهولو الهوية يطلقون عليه الرصاص حتى أصيب في كتفه فوجد سيارة سوداء مارة فذهب إليها لعلها تساعده ولكنها كانت سيارة عصابة اليد الحمراء أطلقة غليه وابل من الرصاص حتى سقط صريحا وهو يحلم بالمستقبل فهذا الوطن مقدس وعلينا الدفاع عنه وحمايته من كل المخاطر فلا حياة بلا وطن ولذلك يجب أن نحب وطننا ونقدسه ونحترمه فالوطن أم و علينا أن ندافع عليه و نضمن أمنه و استقراره .